حياة أعظم الرسل

محمّد في شبابه

مُحَمَّد في شبابه

بُنَيَّ العَزِيز ، إِنَّ مُحمـدًا الآنَ فِـى شَبَابِهِ . وَعُمُرُهُ بَيَنَ الْعِشرِينَ وَالْخَامِسَةِ وَالعِشرِينَ . وَلٰكِنَّهُ لَـيس كَغَيـرِهِ مِــنَ الشُّبَّانِ ؛ فَهُوَ الشَّابُّ الكَامِلُ فِى أَخلاَقِهِ وَآدَابِهِ ، وَأَقوَالِهِ وَأَفعَالِهِ . وَلاَ مَثِيلَ لَهُ بَيْنَ الشَّبَابِ . فَالشُّبَّانُ الَّذِينَ فِى سِنِّهِ كَانُوا يَقضُونَ أَوقَاتَهمُ فِى الْمَلاَهِى ، وَيَشرَبُونَ

الخَمْـرَ ، وَيرتكِبـُونَ مِـنَ الرَّذائِــلِ مَا يُرِيدُونَ ، وَلٰكِنَّ مُحمدًا لَم يَـقْضِ لَحْظَةً فِى الْمَلاَهِى ، وَلَم يَمَسَّ الْخَمْرَ بِشَفَتَيْهِ ، وَلَم يَرتَكِبْ خَطأً فِى حَيَاتِهِ . فَاللّٰهُ قَد حَفِظَهُ مِنْ لَهْوِ مَكَّةَ وَمَلاَهِيهَا ، وَشُبَّانِها . وَلم يُفَكِّرْ مُحمدٌ فِى تَسلِيَةٍ أَوْ لَهْوٍ كَزُمَلاَئِهِ مِنَ الشُّبَّانِ ، بَلْ قَضَى وَقتَ فَرَاغِهِ فِى الْإعجَابِ بِجَمَــالِ الطَّبيعَةِ ، وَفِى السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ الصَّافِيَةِ ، وَفِى التَّفكِيرِ فِى عَجَائِبِ الأَرْض ،

وَالْحَيَاةِ نَفْسِهَا ، وَفِى الْبَحْثِ الْعَمِيقِ عَنِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ ، لِهٰذَا الْعَالَمِ الْمُنَظَّمِ الْجَمِيلِ . وَكَانَ مُحَمَّدٌ يُفَكِّرُ فِى مُشْكِلاَتِ بِلاَدِهِ ، وَمُشْكِلاَتِ شَعْبِهِ .

وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَعجَبُ حِينَمَا يَرَى النَّاسَ يَعبُدُونَ أَصنَامًا وَتَمَاثِيلَ لاَ تَنْفَعُ وَلاَ تَضُرُّ ، وَلاَ تَسْمَعُ وَلاَ تُبصِرُ ، وَيَدعُونَهَا وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيها .

وَقَدِ اهتَدَى بِتَفكِيرِهِ إِلَى أَنَّ هٰذَا الْعَالَمَ الْجَمِيلَ لَم يُخلَقْ وَحدَهُ ، بَل خَلَقَهُ اللّٰهُ

الْخَالِقُ الْقَوِىُّ الْقَادِرُ ، وَهَدَاهُ تَفكِيرُهُ إِلَى أَنَّ هٰذِهِ الأَصنَامَ لاَ تَستَحِقُّ أَن تُعبَدَ ، وَيَجِبُ أَنْ تُهْدَمَ وَتَزُولَ .

فَاللّٰهُ قَد حَفِظَهُ قَبلَ النُّبُوَّةِ وَبعدَهَا مِن كُلِّ عَمَلٍ لاَ يُرْضِيهِ ؛ لِيُعِدَّهُ لِلرِّسَالَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَلِيَكُونَ مَثَلاً كَامِلاً لِأُمَّتِهِ فِى الْعَالَمِ كُلِّهِ .

التَّعلِيمُ : كَانَ التَّعلِيمُ فِى عَصرِ الرَّسُولِ يُعَدُّ مِنَ الْكَمَالِيَّاتِ ، وَلَمْ يَكُنْ مُيَسَّرًا كَمَا هُوَ الْيَومَ . وَكَانَ عِندَ مُحمدٍ

رَغبَةٌ قَوِيَّةٌ فِى أَن يَتَعَلَّمَ ، وَلٰكِنَّ فقرَ عَمِّهِ أَبِى طَالِبٍ مَنَعَهُ مِن إرسَالِهِ إِلَى الْمدرَسَةِ ، فَكَانَ أُمِّيًّا لاَ يَعرِفُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ ، وَلَم يَذهَبْ إِلَى مَدرَسَةٍ ، وَلَم يَحضُرْ لَهُ مُؤَدِّبٌ خَاصٌّ ، وَلٰكِنَّهُ تَعَلَّمَ فِى مَدرَسَةِ الْحَيَاةِ ، فَكَانَ يَذهَبُ مَعَ عَمِّهِ دَائِمًا ؛ لِيَشتَرِكَ فِى الاِجتِمَاعَاتِ الَّتِى يَجتَمِعُهَا مَعَ كِبَارِ مَكَّةَ وَشُيُوخِهَا . وَرَافَقَ عَمَّهُ فِى كُلِّ الْمُجتَمَعَاتِ الَّتِى عُمِلَتْ فِى فِنَاءِ الكَعْبَةِ وَقتَ الْحَجِّ .

وَاستَمَعَ إِلَى الخُطَبَاءِ المَشهُورِينَ ، وَهُم يَخطُبُونَ ، وَالشُّعَرَاءِ الْمَعرُوفِينَ ، وَهُم يُلقُونَ قَصَائِدَهُم ؛ حِينَمَا يَحضُرُونَ إِلَى مَكَّةَ . لَم يَذهَبْ مُحمدٌ إِلَى مَدرَسَةٍ ، وَلٰكِنَّ اللهَ عَوَّضَ عَليهِ مَا حُرِمَهُ ، فَوَهَبَهُ عَقلاً يَفُوقُ كُلَّ العُقُولِ ، وَذَاكِرَةً تَفُوقُ كُلَّ ذَاكِرَةٍ ، وَذَكَاءً يَفُوقُ كُلَّ ذَكَاءٍ ، وَعَلَّمَهُ مَا لَم يَكُنْ يَعلَمُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيكَ الكِتَابَ وَالْحِكمَةَ ، وَعَلَّمَكَ مَا لَم تَكُنْ تَعلَمُ ، وَكَانَ فَضلُ اللهِ

عَلَيكَ عَظِيمًا ﴿ . وَمَيَّزَهُ عَن غَيرِهِ مِنَ الشُّبَّانِ ، فَكَانَ أَحسَنَ قومِهِ خُلُقًا ، وَأَصدَقَهُم قَولاً ، وَأَعظَمَهُم أَمَانَةً ، وَأَحسَنَهُم جِوَارًا وَأَكثَرَهُم حِلْمًا . وَقَد سَمَّوْهُ الأَمِينَ لِمَا امتَازَ بِهِ مِنَ الْأَمَانَةِ ، وَالْعَدْلِ ، وَالتَّوَاضُعِ ، وَالْكَرَمِ ، وَالشَّجَاعَةِ ، وَالْحَيَاءِ ، وَالوَفَاءِ ، وَالعِفَّةِ ، وَالرَّحمَةِ ، وَالعَطْفِ عَلَى الفُقَرَاءِ ، وَالدِّفَاعِ عَنِ المَظلُومِينَ . وَقَد شَهِدَ لَهُ أَعدَاؤُهُ بِالعَظَمَةِ الخُلُقِيَّةِ ، وَحَفِظَهُ اللهُ ،

فَلَم يَرتَكِبْ أَىَّ رَذِيلَةٍ . فَكَانَ يَحتَرِمُهُ كُلُّ مَن رَآهُ وَاتَّصَلَ بِهِ . وَقَد وَثِقَ بِهِ كُلُّ مَن عَامَلَهُ ، وَصَدَّقَهُ كُلُّ مَن تَحَدَّثَ مَعَهُ .

اِشتَغَلَ أَحيَانًا بِالتِّجَارَةِ ، وَعُرِفَ بِالعَدَالَةِ وَالأَمَانَةِ فِى مُعَامَلاَتِهِ . فَإِذَا حَضَرَ لَهُ المُشتَرِى ذَكَرَ كُلَّ الْحَقِيقَةِ لَهُ ، وَأَظهَرَ مَا فِى بِضَاعَتِهِ مِن عُيُوبٍ . وَكَانَ أَمِينًا صَادِقًا مُخلِصًا فِى كُلِّ مَا يَقُولُهُ وَمَا يَفعَلُهُ . وَلِذَا كَانَ جَدِيرًا بِلَقَبِ الأَمِينِ .

لَقد أَدَّبَهُ رَبُّهُ فَأَحسَنَ تَأدِيبَهُ ، وَجعَلَهُ خَيرَ قُدوَةٍ لِإرشَادِ الإنسَانِيَّةِ كُلِّهَا إِلَى التَّمَسُّكِ بِالفَضِيلَةِ ، وَتَجَنُّبِ الرَّذِيلَةِ .

سَفَرُهُ إِلَى الشَّامِ فِي تِجَارَةٍ لِلسَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ :

كَانَ أَبُو طَالِبٍ فَقِيرًا ، وَعِندَهُ أَطفَالٌ كَثِيرُونَ . وَلِهَـٰذَا فَكَّرَ فِي أَن يَجِدَ عَمَلاً لِمُحَمَّدٍ يَكسِبُ مِنهُ عَيشَهُ ، وَقَالَ لَهُ : لَقَد سَاءَتِ الْحَالُ ، وَقَسَا الزَّمَانُ عَلَينَا . وَلَيسَ لَنَا مَالٌ وَلاَ تِجَارَةٌ . وَقَدِ اعتَادَت

خَدِيجَةُ أَن تُرسِلَ إِلَى الشَّامِ رَجُلاً يَنُوبُ عَنهَا لِيَعتَنِى بِتِجَارَتِهَا ، وَيَنتَفِعَ بِالتِّجَارَةِ لَهَا . فَلَو ذَهَبْتَ إِلَيهَا لَفَضَّلَتْكَ عَلَى غَيرِكَ ؛ لِمَا تَعرِفُهُ عَنكَ مِنَ الطَّهَارَةِ وَالْأَمَانَةِ . وَإِن كُنتُ أَكرَهُ أَن تَذهَبَ إِلَى الشَّامِ ؛ لِأَنِّى أَخَافُ عَلَيكَ مِنَ اليَهُودِ . وَلٰكِنَّنَا مُضْطَرُّونَ إِلَى ذٰلِكَ .

كَانَت خَدِيجَةُ سَيِّدَةً غَنِيَّةً جِدًّا ، وَمِن أُسْرَةٍ نَبِيلَةٍ بِمَكَّةَ . وَقَد استَثْمَرَتْ مَالَهَا فِى التِّجَارَةِ ، فَنَجَحَت كُلَّ النَّجَاحِ .

قَالَ مُحمدٌ لِعَمِّهِ : أَرجُوا أَنْ تُرسِلَ إِلَىَّ خَدِيجَةُ فِى ذٰلِكَ . فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ : إِنِّى أَخَافُ أَنْ تَختَارَ غَيرَكَ ، وَتَضِيعَ عَلَيكَ الْفُرصَةُ . فَبَلَغَ خَدِيجَةَ مَا حَدَثَ مِن الْكَلَامِ بينَ مُحَمَّدٍ وَعَمِّهِ . كَمَا بَلَغَهَا مِن قَبلُ أَنَّهُ صَادِقٌ فِى قَولِهِ ، عَظِيمٌ فِى أَمَانَتِهِ ، فَأَرسَلَتْ إِلَيهِ ، وَقَالَتْ لَهُ : دَعَانِى إِلَى أَنْ أُرسِلَ إِلَيكَ مَا بَلَغَنِى مِن رَغْبَتِكَ فِى السَّفَرِ إِلَى الشَّامِ لِلتِّجَارَةِ . وَإِنِّى سَأُعطِيكَ ضِعفَ مَا أُعطِى رَجُلاً مِن قَومِكَ .

فَذَكَرَ ذٰلِكَ لِعَمِّهِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ هٰذَا رِزْقٌ أَرسَلَهُ اللهُ إِلَيكَ . فَلَمَّا خَرَجَتِ الْقَافِلَةُ إِلَى الشَّامِ خَرَجَ فِيهَا مُحمدٌ ، لِيَتَّجِرَ لِخَدِيجَةَ فِى مَالِهَا ، وَرَافَقَهُ مَيْسَرَةُ كَبِيرُ خَدَمِ خَدِيجَةَ . وَسَارَتِ الْقَافِلَةُ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى بُصْرَى « مَوضِع بِالشَّامِ » فَنَزَلَ الجَمِيعُ لِيَستَرِيحُوا عِندَ صَوْمَعَةِ(١) الرَّاهِبِ بَحِيرَى إِلاَ رَسُولَ اللهِ ، فَإِنَّهُ نَزَلَ لِيَستَرِيحَ تَحتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ

---

(١) مَكَانٌ خَاصٌ بِالعِبَادَةِ .

فِى السُّوقِ قَرِيبًا مِنَ الصَّوْمَعَةِ . وَكَانَ فِيهَا
رَاهِبٌ مِن رُهْبَانِ الشَّامِ يُسَمَّى نَسْطُورَى،
فَنَظَرَ إِلَى مَيْسَرَةَ ، وَقَالَ لَهُ : مَنْ هٰذا
الَّذِى تَحتَ الشَّجَرَةِ ؟ فَأَجَابَ مَيْسَرَةُ:
إِنَّهُ رَجُلٌ مِن أَهْلِ الْحَرَمِ . فَبَشَّرَ نَسْطُورَى
بِنُبُوَّتِهِ ، وَقَالَ : « هٰذَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ .
أَتَمَنَّى أَن أُدرِكَهُ حِينَ يُبعَثُ بِالرِّسَالَةِ .

ثُمَّ حَضَرَ رَسُولُ اللهِ سُوقَ بُصْرَى ،
فَبَاعَ بِضَاعَتَهُ الَّتِى أَتَى بِهَا مِن مَكَّةَ ،
وَاشتَرَى مَا أَرَادَ مِنَ الْبِضَاعَةِ ، وَرَبِحَت

خَدِيجَةُ مِن هٰذِهِ الرِّحلَةِ مَا لَم تَربَحْهُ مِن قَبْلُ .

وَقَد أُعجِبَ مَيْسَرَةُ بِمُحَمَّدٍ كُلَّ الإِعْجَابِ ؛ لِأَخلاَقِهِ الْكَامِلَةِ ، وَتَوَاضُعِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَقُوَّةِ شَخْصِيَّتِهِ . ثُمَّ أَخَذَتِ الْقَافِلَةُ فِى الرُّجُوعِ . وَحِينَمَا قَرُبَت مِن مَكَّةَ أَشَارَ مَيسَرَةُ عَلَى مُحمدٍ بِأَن يَسبِقَ ، وَيَكُونَ أَوَّلَ مَن يُبَشِّرُ خَدِيجَةَ بِالرِّبْحِ الْعَظِيمِ . فَسَبَقَ مُحمدٌ ، وَدَخَلَ مَكَّةَ . فَرَأَتْهُ خَدِيجَةُ وَهِىَ فِى شُرْفَةِ (فرانْدَة) بَيْتِهَا الْجَمِيلِ . فَنَزَلَتْ لِتُقَابِلَهُ ، وَأَخْبَرَهَا

مُحمدٌ بِمَا حَدَثَ فى رِحلَتِهِ ، وَمَا بَاعَهُ ، وَمَا رَبِحَهُ وَمَا اشتَرَاهُ . فَسُرَّت خَدِيجَةُ سُرُورًا كَثِيرًا لِنَجَاحِ مُحَمَّدٍ فِى رِحلَتِهِ . وَضَاعَفَتْ لَهُ الأَجْرَ الَّذِى حَدَّدَتْهُ لَهُ مِن قَبلُ .

وَدَّعَ مُحَمَّدٌ خَدِيجَةَ ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى بَيتِ عَمِّهِ أَبِى طَالِبٍ .

وَكَانَ مَيْسَرَةُ يَحْفَظُ كُلَّ مَا يُلاَحِظَهُ مِن أَحوالِ رَسُولِ اللهِ ، وَمَا يَرَاهُ مِن تكَرِيمِ اللهِ إِيَّاهُ ، وَعِنَايَتِهِ بِهِ فِى رِحلَتِهِ وَعَمَلِهِ .

فَلَمَّا دَخَلَ مَيْسَرَةُ مَكَّةَ أَخبَرَ خَدِيجَةَ عَنْ أَمَانَةِ مُحمدٍ النَّادِرَةِ ، وَعَدَالَتِهِ التَّامَّةِ ، وَأَخلاَقِهِ الْعَظِيمَةِ ، وَعَمَّا قَالَهُ الرَّاهِبُ عَنهُ . وَفِى نِهَايَةِ حَدِيثِهِ قَالَ لَهَا :

إِنَّ مُحَمَّدًا لاَ مَثِيلَ لَهُ بَينَ شُبَّانِ مَكَّةَ الَّذِينَ أَعرِفُهُم حَقَّ المَعرِفَةِ .

وَكَانَ لِحَدِيثِ مُحَمَّدٍ الْعَظِيمِ وَمَيسَرَةَ الْمُخْلِصِ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِى نَفسِ خَدِيجَةَ ، فَتَحَوَّلَ إِحتِرَامُهَا العَمِيقُ ، وَثِقَتُها التَّامَّةُ بِمُحَمدٍ إِلَى حُبٍّ شَدِيدٍ ، كُلُّهُ طَهَارَةٌ وَإِعجَابٌ بِخُلُقِهِ الْعَظِيمِ .